# خدمة الحرمين

كان صديق السلطان سليم خان العالِمُ سعدُ الدين يتحدث نقلاً عن والده حسن خان:

ـ ليرحمه الله برحمته الواسعة ولْتكن الجنة من نصيبه، لقد كان السلطان يقرأ كتباً كثيرة أثناءَ الليل، وكان أحياناً يجعلني أقرأُ له وهو يستمع إلي، وذات ليلةٍ كنت نائماً ولم أذهبْ إليه، وفي الصباح بعد أنْ صلَّيتُ الفجر ذهبتُ مسرعاً إليه.

سألني السلطان:

ـ لم أركَ البارحة، ماذا كنت تفعل؟

بدأتُ أبرِّرُ له عدم قدومي ليلةَ البارحة:

ـ لم أنمْ لعدةِ ليالٍ، لذلك غلبني النومُ تلكَ الليلة، ولم أستطعِ القدوم.

ـ حسناً؛ تحدَّث عن الأحلام التي رأيتَها هذه الليلة.

ـ لم أرَ رؤيا مهمةً يا مولاي.

ـ ماذا تعني.. هل تريد أنْ تقنعني أنَّك نمتَ ليلةً بطولها ولم ترَ حلماً واحداً.. هيا تحدَّث، لا تُخْفِ على مولاك شيئاً.

وأقسمتُ له أنني لم أرَ شيئاً مهماً، وإنْ كنتُ رأيتُ فلا أتذكَّر شيئاً.

هزَّ السلطان رأسه مستغرباً، وبقيت حائراً؛ ماذا أفعل؟ ما سبب إصرارِ السلطان هكذا؟

بعد فترة أرسلني إلى دار العالم حسن آغا العالم التقي الورع الذي يقضي ليلَه كلَّه يصلي ويدعو، ولكنْ حالُ العالم حسن آغا لم يكن على ما يرام ذلك اليوم، كان يبدو شارداً كئيباً، فظننتُ أنَّه فقد قريباً له، فقلت له:

ـ أراك اليوم حزيناً متكدِّراً تملأ عينيك الدموع؛ خيراً إنْ شاء الله؟

ـ في الحقيقة؛ لا يوجد شيءٌ مهم.

وكان من الواضح أنَّه لا يريد التَّحدُّثَ عن سبب كدرِهِ، فقال رئيس الخزينة:

ـ لقد رأى أخاه في المنام، ولازال متأثِّراً من تلك الرؤيا.

ـ أرجوك أنْ تخبرَ السلطان، إنَّه منذ الصباح يسألني، ويبدو أنَّ شكوكَه ليستْ وهماً.

وكان يشجع الآغا على الحديث، وهو يتوقع أن يأخذ بشارةً على هذا الكلام.

ـ أرجوك أنْ لا تضعني في الموقف المحرج مع السلطان، ماذا تتوقَّعون منِّي؟ أنْ أكون قد حلمت بالسلطان؟

عندها تدخَّل رئيسُ الخزينة محمد آغا قائلاً:

ـ لماذا لا تحدِّثهم بما رأيت؟ في الحقيقة كونك موظفاً عند السلطان من واجبك أنْ تتحدثَ بما رأيت، برأيك ألا تكون خيانةً إنْ أنت أخفيتَ هذا ولم تقلْهُ؟

عندها بدأ الآغا بالحديث:

ـ رأيت في المنام أنني جالسٌ في العتبة، وإذ بالباب يقرَعُ بشدة، وفتحت الباب وإذا بنورٍ يملأ المكان، وبعد قليل استطعتُ تمييزَ أربعةِ رجالٍ يشع من حولهم النور ويحملون بأيديهم الرايات، وإذ بالذي قرع الباب هو السلطان وبيده راية بيضاء.

ـ هل تعلم لماذا جئنا؟

ـ تفضلوا.

ـ هؤلاء الذين رأيتهم هم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد أرسلنا رسولُ الله ﷺ وهو يبلِّغ سليم خان السلام، ويكلِّفُه بخدمة الحرمين، وهؤلاء الأشخاص الأربعة هم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين وعلي بن أبي طالب، بلِّغْ منَّا السلام لسليم خان.

قال هذا الكلام ثم اختفى.

كان الآغا يبكي وهو يتحدث، وفور انتهاء عملي عدت إلى السلطان، ومن جديد سألني السلطان:

ـ أنا غير مقتنعٍ إنَّك لم ترَ رؤيا الليلة الماضية!

ـ يا مولاي؛ إنَّ خادمك حسن آغا هو الذي رأى الرؤيا، وإذا أذنتَ لي سأحدِّثك بها.

ـ هات حدثني.

وبينما أنا أتحدَّث أصبح وجْه السلطان أحمر، وبدأت الدموع تنهمرُ من عينيه، وعندما انتهيت قال لي وهو يبتسم:

ـ يا لقلبك الطيب، وأنتَ تمدح هذا الشخص ينطبق

عليك المثل: «إذا رأيت أحدهم يُكثِرُ من الذهاب إلى المسجد مباشرةً تقول: إنه وليٌّ من أولياء الله».

ثم قال:

ـ لم يذهبْ مدحك له سُدى، ولكن ألم نقلْ لك: لا نستطيع الذهاب إلى تلك الجهة بدون أنْ نكون مفوَّضين ومستعدين لذلك؟

هؤلاء الأولياء عندهم كرامات، ونحن لا نستطيع أنْ نكون مثلهم أبداً.

لقد كان متواضعاً جداً، وكان يحاول أنْ يظهر نفسه أقلَّ من حقيقتها، وكان ينتظر خبرَ الرؤيا من حسن آغا.

كان السلطان سليم عنده الكثيرُ من هذه الأشياء الغريبة، وبعد هذه الرحلة ذهب وأخذ الأمانات المقدسة، هذا ليس حاكماً، وإنَّما كان خادماً، قلبه مليءٌ بحبِّ الله، وروحه مُنَارةٌ بالإخلاص لدينه وأمَّته.

**«من وجدَ الله وجدَ كلَّ شيء، ومن فقدَ الله فقدَ كلَّ شيء».**